

1436هـ - 2015 م

3

اقلوا عليهم...

حبل اللّٰه كيف نفهمه؟

الجزء الثاني

للشيخ

عمر محمود أبو قتادة

مجموعة نخبة الفكر

اقلوا عليهم [٣] ....

"حبل الله" كيف نفهمه؟ (الجزء الثاني)

للشيخ/ عمر محمود أبو قتادة (حفظه الله)

نُخْبَةُ الْفِكْرْ

رجب ١٤٣٦ هـ – أبريل ٢٠١٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين...

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين، وإمام المتقين وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحبه أجمعين، وعلى من تبعه بإحسانٍ إلى يوم الدين ... جعلنا الله ﷻ منهم .. آمين.

أمّا بعد...

فقد تَقَدَّم الكلام على بعض معاني حبل الله تعالى الذي أمرنا بالاعتصام به، وهذا الحبل فيه أمورٌ ثابتةٌ لا تتغيّر، من الإخلاص والتزام الكتاب والسُنّة، والعمل بالحكمة، وفيه أمورٌ تظهر للناس في وقت باعتبارها مهمة، ثم تضعف في وقتٍ آخر، وذلك لتغيّر الظروف التي تُغيّر الموقف فيما هو متغيّرٌ في شرع الله تعالى، كحكمٍ بُنِيَ على العُرف، أو بُنِيَ على اختيار المكلَّف فيما أطلقه الله تعالى من غير تحديد، فأفراد الحكمة تتغيّر من وقتٍ لآخر، لأن الحكمة هي سبيل إصابة الفعل الشرعي، وهي أدوات الكتاب في تطبيقه، ولذلك جاءت مقرونةً في العطاء الإلهي فيما أعطاه للأنبياء، كما قال تعالى في قوله عن داوود: {وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ}، وقال عن عيسى عليه السلام: {وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}، ومنَّ الله على المؤمنين بقوله تعالى: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ}، والعطف يقتضي المغايرة كما هو معلوم، فاجتماعهما دلَّ على افتراقهما، فالحكمة أمرٌ زائد عن الكتاب، ومعناها طرق تطبيق الكتاب في واقع البشر المختلط بالحسنة والسيئة، والمصلحة والمفسدة، وبين ما هو قريب المنفعة مع قلّتها مع بعيد المنفعة مع كثرتها واستقرارها، وهذا مما يدخل فيه التغيّر من وقتٍ لآخر، ولذلك ما يقال اليوم من حبل الله تعالى داخلٌ بعض معانيه في هذا المعنى المذكور، فلا يُستغرب نسبته لحبل الله تعالى، فإن الحبل هو ما أوصل للمطلوب وكان سبباً لتقوية الحق بين الناس وإدامته، فكل ما قوّاه داخلٌ في معناه، وكل ما أوهنه كان من ضد حبل الله تعالى؛ يفهم هذا كلُّ طالب علمٍ يفقه الدين والحياة، أي الشرع والقَدَر.

تَقَدَّم القول عن الإخلاص ومفهوم الجهاد في وضعه الشرعي ووجوب خلوصه من تلعّب الآخر من الخصوم سواء بالصِلات والعلاقات أو بالمدّ المالي والدعم الذي له حقيقةٌ واحدةٌ في زماننا هذا، لا يجادل فيها أحدٌ يعرف حال الأنظمة ووسائلها في تذليل خصومها وسَوقهم إلى حظيرتها كالماشية الأسيرة، وهي لا تملك من قرارها شيئاً إلا البقاء الذليل على قاعدة اليهود؛ {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ}.

وإتماماً للموضوع نقول:

هل حقاً يوجد اليوم مُسمّى «مهاجرين وأنصار»؟ أمّا أن الاسم ما زال متداولاً فنعم، لكن هل حقاً أهل حلب أقرب إلى أهل درعا من أهل الرمثا الأردنية؟ وهل حقاً أهل السَلط أقرب إلى أهل الطَفيلة من أهل نابلس فلسطين؟ وهل حقاً أن أهل دير الزور أقرب إلى أهل دمشق من القرى العراقية المحاذية لهم؟

وما هو ضابط الليبي والتونسي، وهل حقاً أهل طرابلس أقرب في المشاعر والمعاني والقيم والعادات إلى أهل بنغازي من مدن تونس القريبة عليهم، وهل مرسى مطروح ليبية أَم مصرية، وبأيِّ اعتبارٍ يُنظَر إلى هذه التقييمات؟ ما هو ضابط «المهاجر» إذاً؟ هذا السؤال يُذكّر كلَّ ناظرٍ بما نشأ يوماً من خصام حول مفهوم الأُمَّة؛ فقال القوميون أن جامع الأُمَّة هو اللغة وسيرورة التاريخ، وذلك أخذاً بمفهوم الألمان لهذا المصطلح.

فماذا سيقول «القُطريون» اليوم؟ دعونا نُخمّن...

ولكن راقبوا أصول ما سيقولونه حول مفهوم «الهوية الجديدة» لكلمة «المهاجر» و«الأنصاري»، وراقبوا هذا بحذرٍ ووعي أن الكثير مما سيقال هو على طريقة الحواة الذين يلعبون بالبصر خداعاً بلا أصولٍ علميّة، إنما هو القفز لتقرير الهوى، وكلُّ شيءٍ يقال بلا أصول فهو هوى، هذا ما يحكم به اضطراراً، لا يشكُّ في ذلك عاقل.

الهجرة من مكّة الى المدينة شَكّل مفهوم «المهاجر» و«الأنصاري» كما هو معلوم، فدعونا نجعل من هاجر من حمص إلى حماة هو مهاجر، ومن استقبله هو أنصاري، هل هذه قسمةٌ صحيحةٌ أَم حوّلها بعض ما لا يحبه «أبناء البلد» كما يريدون تسمية أنفسهم؟! من أحقُّ بهذا البلد؟ هل هم من أمثال من تحدّث عنهم هيثم المالح من السوريين أَم من ذهب هناك ليقطع كل علائقه مع العالم لينصر هذا الدين وهذه الأرض وهذا الشعب؟

وأنا سأضطر أن أنقل مقال هذا الرجل هنا ليعلم الناس الواقع ومآلاته ورجاله قبل أن يسارعوا بالقول، فيأتون بالعجائب والمضحكات...

إليك المقال:

هيثم المالح – القدس العربي:

"في مطلع عام ١٩٨٨ وعقب خروجي من السجن الذي زجَّ بي فيه حافظ الأسد، توجهت برحلةٍ بدأتها بزيارةٍ إلى المملكة العربية السعودية ميمماً شطر مدينة الرياض، حيث كان يقيم فيها أستاذي المرحوم معروف الدواليبي، والذي ربطتني به صداقةٌ بعد تخرجي من كلية الحقوق وبدء عملي بالمحاماة ثم بالقضاء، كما ربطتني صداقةٌ بالعديد من أساتذتي الذين كان لهم الفضل عليّ بما قدموه من علم ومعرفة من أمثال الشيخ مصطفى الزرقا والشيخ مصطفى السباعي والدكتور رزق الله أنطاكي وغيرهم، بل لقد كان هؤلاء الأساتذة فيما أعتقد من خيرة من مرَّ على كلية الحقوق، ولم يجُدْ الزمان بمثلهم فيما بعد. توجهت لزيارة أستاذي الدكتور معروف الدواليبي بصحبة الأخ الصديق الدكتور محمد لطفي الصباغ الذي كان مدرساً في إحدى جامعات الرياض ووصلنا داره مساء أحد الأيام في شهر أيّار (مايو)، وكنت قد عقدت العزم على أن أنقل له صورةً عن الأوضاع في سورية وما يجري في سجون النظام، حيث لم يكن قد مضى على خروجي من السجن أكثر من سنةٍ ونيف، عانيت فيه كما عانى فيه غيري من السجناء؛ الكثير، الكثير من الجرائم التي كانت ترتكبها أجهزة الأمن المتعددة في العديد من السجون وخاصةً في الفترة التي امتدت منذ اعتقالي في مطلع ١٩٨٠ حتى الإفراج عني نهاية عام ١٩٨٦. وما إن استقرّ بنا المقام لدى مضيفنا الدكتور الدواليبي حتى بدأت أروي ما وقع ويقع في السجون السورية إلا أنني كنت أُفاجأ من قبل الدكتور معروف بتغيير الحديث ونقلي إلى الحديث عن أمجاده، وعبثاً حاولت خلال

وجودي لديه والتي امتدت قرابة ساعة أن ألفتَ استماعه لِمَا أقول ولكنه لم يكن يرغب أن يستمع، في الوقت الذي كان يشغل وظيفة المستشار الخاص للملك فيصل رحمه الله وكنت آمل من زيارتي له أن أدفعه لأن يُقدم إلى بلده مساعدةً ما وهو في هذا الموقع. تأكدت أن الدكتور معروف لا يريد الاستماع فاستأذنته وصديقي الدكتور محمد الصبّاغ، وعند باب مسكنه (ڤيلا) خاطبنا بقوله: "إن للبيت رباً يحميه"، وأدركت أنه لم يكن يريد أن يستمع لأيّة أخبارٍ عن بلده التي كانت في محنةٍ كبيرة. كان الدكتور معروف الدواليبي قد غادر سورية كما غادرها آخرون من القياديين الى المملكة العربية السعودية وذلك عقب الانقلاب العسكري الذي قاده الضابط زياد الحريري واستيلائه على السلطة عام ١٩٦٣، ومنذ ذلك الحين لم نعد نسمع لأحدٍ من هؤلاء أيَّ حسٍ أو خبر يُنبئ أنهم كانوا يحاولون مساعدة أهلهم أو انتشال بلدهم الذي كان يعاني من الجرائم التي تُرتكب بحقهم من قِبَل حكمٍ عسكريٍّ فاجرٍ مجرم، وهم برحيلهم قد أفرغوا البلاد من القياديين الذين كان يمكن لهم مساعدة الشعب على التصدي لانحراف السلطة، وذلك خوفاً على أرواحهم وحرياتهم وطمعاً فيما يُغدق عليهم من رواتب عالية وعيشةٍ هنية في البلاد التي رحلوا إليها، وهو الذي أدّى بالثورة لأن تدفع ثمناً باهظاً من أجل التغيير.

هذه صورةٌ لأحد القياديين الذي أعرض عن مجرد سماع أخبار بلده وما يعانيه من حكم حافظ الأسد الذي دمر البلاد والعباد، وهي صورة مختصرة عن هؤلاء الذين آثروا حياة الراحة والدَعة بعد أن رأوا بأنفسهم مرارة معاناة أهلهم وشعبهم. إلا أن الملفت للنظر أن العديد من أولاد وأحفاد هؤلاء خرجوا كالفقاعات بعد انطلاق الثورة ليقدموا أنفسهم بانتمائهم لآبائهم أو أجدادهم قادةً في المرحلة الحالية، وفي سبيل ذلك استسهل بعضهم الارتماء بأحضان المخابرات الأجنبية، بل وحتى التابعة للكيان الصهيوني في فلسطين، واستساغَ بعض المتحذلقين السياسيين الجلوس الى الأعداء ضاربين عرض الحائط بما ارتكبه ويرتكبه هؤلاء الأعداء بأهلنا في فلسطين، بل ويتصدّر بعضهم الواجهات السياسية ويتجولون ناطقين ومُعبّرين عن أصوات بعض المعارضة. والسؤال الذي يطرح هنا، هل أن ثورتنا في سورية بحاجة للتمسّح بأعتاب الأعداء وبأجهزتهم الأمنية وسواها؟ لا والله كلا وألفُ كلا، إنني من موقعي في الثورة السورية التي يعرفها القاصي والداني، ومن موقعي وقد أخذت على عاتقي مساندة الثورة والإصرار مع الثوار على النصر حتى النهاية، أرفض كما يرفض شعبي في سورية هؤلاء الناس، وأقول لهم عودوا إلى صوابكم،

وليست الثورة بحاجةٍ لمثل هذه الجهود ولا للتواصل مع الأعداء، فالثورة منتصرةٌ من غير هذه الجهود، {وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ}."

هذا المقال لا يعنيني فيه الكلام على هيثم المالح، ولكن يعنيني ما فيه، وهو مما يجب استحضاره بالبال عند الجواب على سؤال من هو «المهاجر» ومن هو «الأنصاري»، هذا عند من يتعامل مع هذه التشكيلة الجديدة بالألفاظ الشرعية، وإلا فقطعاً هناك من يُسمي من جاءه مجاهداً لرفع الظلم عنه يسميه «غريباً»، بل ربما شقّ صوته، وليته يشق وهو يطالب بطرده وعودته لبلاده، لأن دينه الذي يَدينُ به هو صناعة الجاهلية التي حدَّت هذه الحدود.

وأنا أعتقد باختصار وبدون اهتمامٍ لصراخ الجهلة ولا «القُطريين»، ولا أبناء الجاهلية التي تفتخر بالأنساب، وهي ما يقوم مقامها حدود الجاهلية الجديدة أن هذا المفهوم لا وجود له بالمفهوم السياسي، وأقول بالمفهوم السياسي إخراجاً للمفهوم الشرعي ببقاء الهجرة للجهاد، كما قال النبي ﷺ: ((وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ))، وكما هو معلوم فإن باب الهجرة لا يُغلَق إلى يوم القيامة، وهذا في تطبيقاته الشرعية موجودٌ في داخل القُطر الجاهليِّ الواحد كما تَقَدَّم ذكره ، وليست صورته بما يضعه المصنفون للناس غرباء وأهل محلة.

هذا المعنى وهو إلغاء المفهوم السياسي للأنصار والمهاجرين يعني في موضوع الوحدة اليوم، أن يُنظَر إلى الناس باعتبار كفاءاتهم وقدراتهم، والكلام هنا عن القيادات الكبرى، وأمّا ما كان خاصاً لمدينةٍ ما فهذه لها قانونها المعلوم من الحكمة في التعيين والاختيار، وهو قانونٌ كانت حكمة النبوّة في تجاوزه أحياناً كما هو بَيّنٌ في قراءة السيرة النبوية، وأمّا النظر إلى «غريبٍ» و«بَلَدي» في القيادات الكليّة العظمى بحجة الحكمة المزعومة فهذا تكريسٌ للجاهلية كما هو بَيّن، وهذا لمن تأمّله يعني فرض دين الإسلام في هذا الباب، وهو مما يُعين على تحديد مفهوم الجهاد المتَقَدِّم ذكره في المقال السابق، فإن وجود هؤلاء هنا وفي أعلى مراكز القيادة يعني صواب الجهاد، وأن مآلاته هي مآلات الجهاد كما هو في دين الله تعالى وآمال المسلمين عامّة.

وأنا هنا لا أتكلم عن حكمة الإدارة ولا أضبط أحداً في اختياره، لكني أتحدث عن المفاهيم التي تحكم البعض، وهي مفاهيم غير سديدة، ومن غير هدمها لا يتم الانطلاق بسُنّةٍ نبويّة ولا سُنَنيّة صحيحة توصل للمراد، ويمكن للمخالف أن يقول: "أليس من الحكمة اعتبار نفسية الناس وظروفهم وميولهم؟" والجواب نعم، ولا يشكُّ في هذا أحد، كما لا يناقضه أحد، لكن نحن نعالج مفاهيم جاهلية تريد قيادة الجهاد في داخل أطرها الخاصة، ثم هي تريد تزويق هذه الرؤى بالشرع والدين، وهي تبدأ بالقليل لتنتهي إلى سرقة حقيقة هذا الجهاد لجعله حالة ثورةٍ إنسانيةٍ لا نية فيها لدينٍ ولا لشرع إلا بما يخدم المراد.

كما يمكن أن يقال: "أَلَم يقم بعض المهديين اليوم من اعتبار هذه التقسيمات في ظرف من الظروف؟" والجواب نعم، قد فعله الحكماء ولا شك، ولكن وهو يعمله، أي هذا الاعتبار ويقيمه يقسّم الولايات على وفق قاعدة الجهاد الشرعي ليتم ضبط الأمور ضبطاً حكيماً، لا على معنى ما يريده القُطريون في تقسيماتهم.

هناك دائماً في الوجود – رغم أنوفنا – حدودٌ نضطرُّ إليها مع عدم صحتها في المطلق، كما حَدَّ وقت قبول الشعر في سَنَةٍ مُعيّنة وجعل بشار بن بُرد حداً لهذا الفصل، وهو أمرٌ في المطلق غير مقبول، لكنه أمرٌ اضطراري، وكما تحدُّ التواريخ في الدراسات، وكما تحدُّ الولايات في تاريخنا الإسلامي، لكنها هذه لا تكون إلا لحكمة الفعل والاضطرار إليه، لا أنه دينٌ يريد البعض اتخاذه وسيلةً لتنفيذ أجندته الخاصة في الوصول إلى أهدافه النهائية.

نحن نعلم كيف تلتقي الكلمات، ونعلم كذلك كيف تختلف المقاصد، وكذلك نعلم منطلقات الأقوال والأفعال، وبها نحكم على الناس، لا لأن الأمر بحثٌ في النوايا والبواطن، بل لأننا نرى واقع هذه المنطلقات، وكيف تَبين عما تحتها، فالجاهلية أَعملَت عملها في الناس، وهذا سنراه جلياً عند بحث المراجع التي تحكم هذا الجهاد عند كل طرف، حينها سيتبيّن الناس واقع منطلقات النظرة الجاهلية وواقع منطلقات النظرة السُنيّة الرشيدة.

ولعلَّ هذه الفتاوى القُطرية منطلقاتها جاهلية، وهي في احترام قوانينها تريد ضبط الجهاد على وفقها وسبيلها ومطالبها، لا يشكُّ في هذا باحثٌ ولا ناظر.

إن تمَّ الذي قلناه من اعتبار الجهاد إسلامياً يُلغي مقررات الفساد الذي عشناه، وهو إن شاء الله يمنع الازدواج في الخطاب الذي يمارسه البعض حين يخاطب الجاهلية وحين يخاطب إخوانه، فهو متشددٌ قويُّ البيان مع مفاصلة الجاهلية إن تحدث مع الشباب، وهو لين الملمس غير بيّن الدين إن خاطب أعداء الإسلام.

وهذه لمن تأمّلها هي المعين القوي والفتنة الجلية في إبراء الجهاد من التميّع والمهادنةِ اللتين تمارسان بطريقةٍ مثيرةٍ للاشمئزاز من المسلمين ومن خصوم الإسلام حين يراقبون هؤلاء المتلعبّين كما يراقب الخبير فأرَ المختبرات وهو ينظر إليه من عَلٍ كيف يحاول التصرف بذكاء ليخرج من تيه الطرق المرسومة له، والفأر لجهله يظن أنه لا يخضع لقانون اللعب المرسوم له، فلا يزداد الخبير وهو يراه إلا ضحكاً عليه، مع بعض إعجابٍ قليلٍ كما يُعجَبُ الصانع بحركة صانعه، وكما يُعجَبُ الكبير من محاولة تذاكي الصغير.

وللحديث بقية .. والله الموفّق.